العلاقة بين المعلم والطالب.. كيف يمكن تطويرها؟

الأهداف:

• محاولة الاستفادة مما ورد في تراث الحضارة الإسلامية عن علاقة الطالب بمعلمه.
• إطلالة على صورة التعليم في الوقت الحاضر.
• محاولة البحث عن مدى تأثير طرق التعليم على العلاقة بين المعلم والطالب.
• البحث عن صورة علاقة جديدة بين المعلم والطالب، تعطي للطالب الحرية، وتحافظ على كرامة المعلم.

«المعلم والطالب» صورة العلاقة في التراث الإسلامي:

قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾[1] وفي أية أخرى ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2] المعلم والطالب هما عنصران هامان من عناصر التربية وتأتي الأسرة كعنصر ثالث يكمل هذه العناصر, والمنهج هو العنصر الرابع.. فالعملية التربوية لا يمكن أن تقوم بدون وجود هذه العناصر في خلطتها، تماما كطبخة معينه لا يمكن الاستغناء عن عناصرها الأولية.

وفي موضوع التربية لايمكن الحديث عن الطالب، بمنأى عن المعلم والعكس صحيح.. يشبه إلى حد بعيد الأبناء الذين لايمكن أن نتحدث عنهم بعيدا عن آبائهم، من هنا فإن الحديث عن وضعية الطلاب يتضمن فعلا الحديث عن المعلمين، والنظام التعليمي بأسره.

ويقع الكثير من الناس فريسة الفصل بين الطالب والمعلم وكأنهم أشياء مختلفة، فتجد أن المعلمين يرمون بسهامهم على أسرة الطالب، كونها أخفقت في تربيته بشكل لائق، بينما يلقى الطلاب باللائمة على المعلمين كونهم قاصرين عن الفهم الإنساني، أداء الواجب، يتصفون بعدم العدل بين الطلبة.

وعندما نبحث في دفاتر تراثنا الإسلامي هادفين إلي الاستنارة بصورة العلاقة بين المعلم والطالب، سنجد أن هناك تنظيما رائعاً، نظر اليه وطبق في عهود الدولة الإسلامية..نجد أن الإسلام والثقافة الإسلامية والعربية يحثان «الطالب» المتعلم في جميع المراحل على الجّد والتعب من أجل تحصيل العلم، ويحثانه على التواضع عند التعامل مع المعلم، فقد ورد في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبى طالب عليه السلام قوله: «وأما حق سائلك بالعلم فالتعظيم له، والتوقير لمجلسه وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، والمعونة له، على نفسك فيما لا غنى بك عنه من العلم، بأن تفرغ له عقلك وتحضر فهمك وتزكي له«قلبك» وتجلي له بصرك وبترك اللذات، ونقض الشهوات، وأن تعلم فيما ألقى«إليك» رسوله إلى من لقيك من أهل الجهل فلزمك حسن التأدية عنه إليهم ولا تخنه في تأدية رسالته والقيام بها عنه وإذا تقلدتها ولا حول ولا قوه إلا بالله».

وقد ذكر صاحب كتاب منية المريد في أدب المفيد والمستفيد أربعين صفه يجب أن يتصف بها المتعلم «وأستاذه» منها على سبيل المثال:

1- أن يختار المعلم الذي يأخذ منه العلم فليختر من كملت أهليته وظهرت ديانته وتحققت معرفته، وعرفت عفته... وظهرت مروته.
2- أن يعتقد في شيخه أنة الأب الحقيقي والوالد الروحاني له.
3- أن يعتقد «التلميذ» أنه مريض النفس.. وأن شيخه طبيب مرضه.
4- أن يتواضع له زيادة على ما أمر به من التواضع للعلماء.
5- أن يجلس بين يديه جلسة الأدب والسكون والخضوع وإطراق رأس تواضع وخشوع... الخ.

ويحدثنا ابن جماعه في الباب الخامس من كتاب «تذكرة السامع» عن أهم الأداب التي ينبغي أن يتحلى بها طالب العلم منها:

1- أن لا ينشغل فيها «المدرسة» بالمعاشرات والصحبة إلى ذلك بل يقبل على العلم.
2- أن يكرم أهل المدرسة التي يسكنها بإفشاء السلام وإظهار المودة والاحترام،«وفي الوقت الحاضر يمكن أن نقول أن يتعامل بأدب مع العاملين في المدرسة».
3- أن يختار لجواره أصلح الطلاب حالا وأكثرهم اشتغالا.
4- أن يحافظ على أثاث المدرسة من الإتلاف والتوسيخ.
5- أن لا يتخذ باب المدرسة مجلسا بل لا يجلس فيه إلا لحاجه كانقباض صدر أو ضيق «تذكر أن مثل هؤلاء الطلاب ينامون في المدرسة».
6- أن لا ينظر في غرفه أحد الطلاب أثناء مروره من شقوق الباب وأن سلمّ.. سلمّ وهو ماش.
7- أن يتقدم الطلاب على المدرس في حضور الدرس «وهم في» أحسن الهيئات.

نود أن نلفت نظركم بأن النظام التعليمي الإسلامي ضمن العلم للفقراء والأغنياء، بالإضافة إلى رعاية خاصة بالموهوبين، وكان يصرف عليهم من الأوقاف، لذلك تخرج مجموعه من الفقراء أمثال، أبو تمام الطائي الشاعر الشهير والجاحظ والإمام الشافعي والإمام الغزالي وأخيه احمد خصوصا في المدارس التي أسسها نظام الملك 457 هـ وسميت بالمدارس «النظامية» والمدارس التي بناها نور الدين زنكي وسميت بالمدارس «النورية» هذا من جهة.

من جهة أخرى «نلاحظ» أن التراث الإسلامي العربي، لم يغفل الحديث عن شروط المعلم وصفاته والتي أهمها:

1- أن لاينصب لهذا المنصب العلمي إلا بعد أن يستكمل عدته ويشهد له بذلك أفاضل أساتذته وكبار علماء عصره.
2- ألا ينقطع من تعليم الطالب علماً، إلا إذا آنس منه فهماً.. ثم يتدرج معه إلى تفريعات العلوم، وأن يذكر له قواعد هذا العلم.
3- أن يطرح على طلابه أسئلة كثيرة يفهم منهم مقدار ما استوعبوه.
4- أن يصون درسه من الغوغاء واللغظ وسوء الأدب.
5- أن يكون مهذباً متديناً متحلياً بالأخلاق النبيلة، كاظماً لغيظه حليماً وقوراً متئداً رفيقاً بطلابه.
6- أن لا يدعي علم ما يجهل.
7- أن يكون متقيداً بشروط واقف المدرسة منفذاً لرغباته.

8- أن يكون حريصاً على حفظ أثاث المدرسة وكتبها وأدواتها وأن يوصي الطلاب بذلك.

هـذا ملخص مـا رواه ابن جماعـة في كتـاب تـذكرة السـامع والمتكلم في أدب العـالم والمتعلم والأمـام الغـزالي في كتابـه «إحيـاء علـوم الـدين» وطاش كبرى زاده في كتاب «مفتاح السعادة» وابن عبد البر في «جـامع بيـان العلم والفضـيلة» والزرنـوجي في «تعليم المتعلم» والسـبيكي في «معين النعم ومبين النقم» اسـتقيناها من كتـاب الـدكتور عبـد اللـه عبـد الـدائم «التربيـة عـبر التـاريخ من العصـور القديمـة حـتى أوائـل القـرن العشرين»، ولم يخرج القلقشندي كثيرا عن هذه الشروط.

ومـع التطـورات الـتي حـدثت للتعليم من تغـير وتطـور لـدور المعلم في مدارسنا،إلا أن أكثر ما يعاب على نظام التعليم، نجـد أننـا محتـاجون هـذا اليـوم وغـداً الى التمسـك بهـذه الثـوابت مـا كـانت في خدمـة العمليـة التعليمية وليس من أجل التحكم في الطالب.

نظامنا التعليمي في بداية عهده كان يعتمد على الحفظ. وحشـو الـذهن بالمعلومات... هـذه الأمـور كـانت مقبولـة. ومـع أن النظـام لم يبـق على حاله إلا انـه لا يـزال يعـاني من الكثـير من المشـكلات بعضـها يرجـع إلى الطالب والمعلم، والآخر منها يرجع إلى البيئة المحيطة.

تطورات المفاهيم التربوية:

كما يعلم الجميع أن التربية ليست مسألة جامدة، وإنما هي عمليه متجددة لذلك لا يمر يوم إلا ويفصح العلم عن طريقه أخرى للتعليم فدور كـل من الطالب والمعلم مرت بمراحل متعددة، انتقل فيها دور الطالب من الدور السلبي المتلقي للمعلومـات، إلى دور المشـاركة، ثم إلى دور المشـارك الفعال، وكذلك المعلم تحول دوره من الملقي، إلى الشـارح للمعلومـات، والمستخدم للوسائل، إلي دور المجـري للتجـارب، والمشـرف والمصـمم للعملية التعليمية والتي تعتمد على المبادئ النفسية والتربوية الـتي جـاء بها سكنر ورفاقه، والتي تعتمد على قياس السلوك، واسـتثارة الدافعيـة، وتعزيز الأفعال الإيجابية أما الآن فيسود نوع جديد من التعليم وهو التعلم عن بعد، أو التعليم عن طريق المجموعات.أو التعليم عن طريق الورشـة، والشحذ الذهني.

نعتقد أن مثل هذه النماذج، لو استطعنا استيعابها بشكل جيد، لمكننا ذلك من استعادة حماس المعلم «المفقود» وتحفيز الطـالب لتحقيـق المكانـة الاجتماعية لنفسه، والتي هي مطلب يحظى بأهمية كبـيرة خصوصـاً لـدى طالب المرحلة الثانوية، ناهيك عن فوائدها من الناحيـة الاجتماعيـة، مثـل الكشف عن حالـة القيـادة والتبعيـة، وتعلم الحـديث والكلام والتعبـير عن الذات وهي صفات وأمـور «أغفلتهـا» لم تعطهـا المنـاهج القديمـة قيمـة واهتماماً كبيراً في تخطيطها.

وفي الواقع نحن أمام منعطفات كبيرة تسود العالم أجمـع!.. نحتـاج فيـه إلى النظـر جيـداً في طـرق التعليم القديمـة والسـائدة حاليـاً في بلادنـا، والتي لا يمكن أن نقول أنها كاسدة بالكامل، كم أننا لا نستطيع أن نجزم بإيجابية الطرق الحديثـة بالكامـل وملاءمتهـا للبيئـة المعاشـة دون إدخـال أدني تعديل عليهـا.. لكن وقياسـا للمجتمعـات العربيـة الـتي طبقت مثـل

هذه الطرق التعليمية، فإن الأمر أمسى مشجعاً ومفيداً ومناسباً للعملية التعليمية بشكل كبير.

نشير في هذا الصدد إلى دراسة أخيرة قامت بها الباحثة «نجاح الرمحي» لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة ولدز في بريطانيا حول تجربة أسلوب التعليم التكاملي في فلسطين وبدأت الباحثة التي أعجبها موضوع التعليم التكاملي فجعلته موضوع رسالتها.

وقد أبدت الكاتبة إرتياحها لوجود تغيرات إيجابية في جوانب كثيرة في العملية التعليمية في هذه الصفوف. تبرز هذه التغيرات في تطبيق أساليب تدريس متنوعة وجديدة واستخدامها بطريقة فعالة، مثل طريقة العمل في إطار المجموعات، وكذلك استخدام أسلوب الدراما ومعها طرح الأسئلة المفتوحة والتعليم عن طريق العمل واللعب، وربط المفاهيم الأكاديمية بواقع الحياة، واستخدام أساليب ونشاطات على أرض الواقع واستغلال مرافق المدرسة الخارجية للتعليم، وتفعيل أفضل للمواد الخام في البيئة المحلية.

جدير بالذكر أن الباحثة تحدثت عن تقليل الفجوة ما بين المعلم والطالب بأنه «المحور الرئيس في التغيير» وذكرت أن أسلوب التعليم التكاملي ميّز علاقة الطالب بالمعلم بالكثير من الانفتاح والقرب مما انعكس على نفسية الطالب، ونقله من الجو الروتيني إلى جو آخر أكثر رحابة، وأعطاه الحرية كي يكون عنصراً مؤثراً يجعله مستمتعاً، وبذلك يحب المدرسة ويبدع أكثر.

ما نستفيده من هذا الأمر هو أننا يجب أن نعيد النظر في الطرق والأساليب التربوية المستخدمة، ومحاولة التطوير منها ولو بشكل تجريبي.. علما أن كثرة الطلاب في الصف من أهم إعاقات أسلوب التعلم التكاملي، وكذلك أسلوب التعلم التعاوني، أو المجموعات، وغيرها.

إننا محتاجون في هذه الحالة إلى تخفيف عدد الطلاب في الصف،ومحتاجون إلى تخفيف نصاب المعلم من أجل الأعداد والتخطيط الجيد لهذا التعلم.

إن صورة العلاقة «أيها السادة» بين الطالب والمعلم، أصبحت في الفترة الأخيرة في مهب الريح، الايجابيون من المعلمين، ينحون باللائمة على الأسرة وعلى الطالب، أما السلبيون فيكفرون بالنظام التعليمي، ويرون عدم جدوائية التعليم في الوقت الحاضر.

وإدارات التعليم، ومن فوقها وزارة التربية والتعليم تعتقد إن مثل هذه المشكلات «وبعضها تصادمات دموية بين الطلاب والمعلمين»، أمور منتشرة في العالم بأسره، وليس في المملكة العربية السعودية، ولذلك تفضلت علينا في الآونة الأخيرة مشكورة بنظام للعقوبات السلوكية في المدارس، ومنها درجات المواظبة والسلوك.

واجبنا تجاه هذه التغيرات:

امام هذه الصورة المستجدة ماالذي يمكن أن نفعله، بهدف تصحيح هذه العلاقة الغير سوية بين الطالب والمعلم؟

أولاً يجب أن نعترف إن كثيراً من المشكلات الطلابية، ليست نتاج النظـام التعليمي لوحـده، أو المنهج الدراسـي وان كـان النظـام بمـا فيـة المنهج مساهم بشـكل كبـير في بعض المشـكلات الطلابيـة. إن المشـكلات الـتي تحدث بين الطلاب والمعلمين، يسببها مجموعة من الأسباب مجتمعة منها ما يتصل بالمدرسة، ومنهـا مـا يتصـل بوسـائل الأعلام، ومنهـا مـا يتصـل بالبيئة المحيطة.

وكما الطالب، فإن المعلم ذاته واقع في مشكلات كثيرة تخلقها التغيرات الشديدة التي تغير وجه المجتمع, والحل لا يجب أن يكون بزيـادة الجفـوة بين الطـالب والمعلم، ولايجب أن يكـون بإغمـاض أعيننـا عن المشـكلة. الحل يكمن في زيادة الانفتاح بين الطالب والمعلم وإعطاء الطـالب دوراً على صـعيد المدرسـة«المنشـأة» والمدرسـة «النظـام»، والتعامـل معـه كشريك في العمليـة التعليميـة، وليس كمنفـذ لهـا فقـط بشـكل سـلبي، ويجب المحاولة بجدية للإحاطة بمشكلات الطلاب، وقد يكون تجريب بعض الطرق التعليمية مجدية لكسـر الـروتين، إضـافة إلى التركـيز على زيـادة جرعة النشاط الطلابي، وزيـادة عمـل الطلاب في ورش أو غـيرة بشـكل فـرق عمـل، لتوطيـد الـروح الجماعيـة لـدى الطلاب وزيـادة العلاقـة بين الطلاب ببعضهم.

في الواقـع كـان لـذي تجربـة مـع طلابي، في الحصـص الغـير نظاميـة «الانتظـار» وفي حصـة التربيـة الوطنيـة، أنـاقش معهم مشـكلاتهم مـع الدراسة، فأجد أن الطلاب يتفاعلون بشكل كبير، ويقدمون بشكل أفضل، ويعبرون عن آرائهم في أعقد المشكلات.

واحـدة من أهم المشـكلات لـدى الطلاب، كـانت العلاقـة بين الطـالب والمعلم.. ففي واحـدة من الجلسـات طلبت من احـدى المجموعـات تقـييم علاقـة طلاب الصـف مـع المعلمين بين السلب والإيجاب فكانت الإجابة واضحة وتحمل في طياتها الصـراحة كمـا «تسمعون» تقرؤون:

م	الإيجابيات	السلبيات
1	نجامل المعلمين	للنفاق معهم
2	نفرح في حصة الرياضيات	نؤذي المعلم
3	نلبي طلبات المعلمين	ليس لله: إنما للدرجات
4	نعتني بنظافة الصف	نعاقب على اقل شيء يخرب
5	نفرح في غياب المعلمين	تتراكم الدروس ويقول أستاذ الأحياء اعتبروا الدرس مشروح، وتكذب الإدارة «العبارة للطلاب» علينا بقولها الأستاذ موجود ولانخرج مبكرين ثم يقولون رأينا أحد يشبهه
6	يجعلونا نحل تمارين كثيرة	تتعب أيدينا من الكتابة وخصوصاً الرياضيات

ومع أن هذه الأمور نسبية، وبعضها خطأ في التقييم، لكن هذا هو مفهوم الطلاب عنها، والأهم أنهم استطاعوا الحديث عنها بصدق وبصراحة، وهذا من شأنه لفت نظر إدارة أي مدرسة لمـا يحملـه طلابهـا من همـوم، ومـا يرونه من أخطاء، والنظر إليها إما للإصلاح، أو للتوضيح.

النظام التربوي الحديث يحمل في طياته الكثير من الاقتراحات الـتي من شأنها نسف المفاهيم التربوية القديمة، والتي طالمـا نـادى التلاميـذ بهـا وهي إعطاءهم فرصة للتعبير عن رأيهم، وعدم التفرقة بين طالب وآخر.

التوصيات:

1. إن التراث الإسلامي مليء بالشروط والمواصفات يجب أن يتصف بهـا كل من طالب العلم، وصفات يجب أن يتصف بها المعلم.

2. إن المشكلات بين الطالب والمعلم ناشئة من مجموعه أسباب لا دخـل للطالب، أو المعلم فيهـا بشـكل مباشـر؛ الحـل يكمن في كسـر الـروتين التعليمي وتطبيق نماذج أخرى من التعليم أثبتت فاعليتها.

3. يجب أن ينظـر إلى هـذه النمـاذج الجديـدة كأسـلوب جديـد يحتـاج إلى توفير بعض الشروط والمستلزمات أهمها التـدريب، والتخطيـط, وتقليـل نصاب المعلم والتخفيف من الاكتظاظ الطلابي.. الأمـر الـذي يحتـاج إلى جهـد غـير عـادي من المشـرفين الـتربويين في الـوزارة وأدوات تعليم المناطق.

4. إن الحريـة النسـبية في الصـف الدراسـي وكسـر الحـواجز الأسـمنتية الفاصلة بين المعلم والطالب قـد تحـل كثـير من الأزمـات الـتي يمـر بهـا الطلاب في مدارسنا.